الفصل الثامن

نماذج لأثر الحضارة الإسلامية على أوروبا

(الحياة العلمية والأدبية في الأندلس)

كانت الأندلس تابعة للسيادة الأموية في بلاد الشام، ولهذا كان من الطبيعي أن تتأثر بالمظاهر الحضارية الشامية وهو ما يعرف بالتقليد الشامي، الذي ظهر منذ البداية في شبة الجزيرة إذ اجتهد الولاة على تطبيعه، وعندما تمكن جند القائد بلج بن بشر القشيري من إيجاد ملاذ في الأندلس سنة ١٢٥هـ أتاحت هذه المناسبة على نشر هذا التقليد فيما وراء قرطبة نفسها [١].

وأخذ التقليد الشامي يتعمق منذ ارتقاء عبد الرحمن الداخل الإمارة بسبب قدوم جماعات عربية، وكان النجاح في إقامة دولة أموية يجذبها إلى الجانب الشرقي من البحر المتوسط[٢]. كما أن الحقد على العباسيين ألف بين الجماعات العربية وبين النظام الأموي في قرطبة في العصور الوسطى، وبذلك حققت الأندلس ليس وحدتها السياسية فحسب بل وحدتها الدينية أيضاً [٣].

التاثيرات الحجازية:

الذي ظهر في نهاية القرن الثاني حيثما ضعف التأثير الشامي على الأندلس بسبب تمرد سليمان وعبد الله على أخيهما الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل، وكان وراء هذا التمرد الحزب الشامي، فلما انتصر الأمير هشام على أخوته هربوا إلى شمال أفريقيا، وضعف الحزب الشامي بالأندلس فنتج عن ذلك ضعف التأثير الشامي، وبذلك نجد الأندلسيين يبحثون عن آفاق جديدة فاهتدوا إلى المظاهر الحجازية.

كانت المدينة مركز العلوم الدينية، وقد توج نضوج هذه العلوم وجود الإمام مالك بن أنس فيها (ت ١٧٩) صاحب كتاب (الموطأ) فأقبل الأندلسيون على اعتناق مذهبه في عهد الأمير هشام، وشاع هذا المذهب بالأندلس بعد أن

---

(١) بروفنسال ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، بيروت، بلا، ٤٦.
(٢) بروفنسال، حضارة ٤٧-٤٨.
(٣) بروفنسال، حضارة٤٦.

استهوى الأمير ومن حوله من الفقهاء تلاميذ مالك دون أن يرى أحدهم الآخر[١] بالإضافة إلى التعاطف بين الأمير هشام والإمام مالك نتيجة عدواتهما للعباسيين، إذ ساند الإمام مالك ثورة محمد ذي النفس الزكية في المدينة سنة ١٤٥ ضد الخليفة العباسي المنصور، وقد أفتى بجواز تحلل المسلمين من بيعة المنصور، ولذا لقي كثير العناء من العباسيين[٢].

كذلك تبلور التأثير الحجازي بالعلماء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز، ودرسوا على يد الإمام مالك فنقلوا مذهبه إلى الأندلس وفي مقدمتهم أبو عبد الله زياد ابن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون[٣].

وتعلل الروايات أن الشبه الكبير بين طبيعة أهل المغرب والأندلس وطبيعة أهل الحجاز من حيث البساطة كان من أسباب انتشار المذهب المالكي في مغرب العالم الإسلامي، ولهذا فإن عقلية أهل المغرب والأندلس كانت تغلب عليها نزعة أهل الحديث، وجانبوا نزعة أهل الرأي والقياس (مذهب أبي حنيفة)[٤].

التأثيرات العراقية:

إن التأثيرات العراقية حدثت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني؛ الذي اتبع العباسيين دون أن يرى في العداوة التقليدية بين الأسرتين أي أثر يمنعه من اقتباس معالم الحضارة العباسية والاقتداء بآثارهم، وهكذا أصبح نظام الإدارة في قرطبة صورة منقولة عن نظام الإدارة العباسية.

قام العديد من طلاب العلم الأندلسيين بالرحلة إلى العراق للتزويد بالعلوم من منابعها، وقد أمضى معظمهم سنوات طويلة تجاوزت العشرين سنة أحياناً من أجل هذه المهمة من أمثال محمد عبد السلام الخشني[٥]. وأنفق الكثيرون القسم الأكبر من ثرواتهم في شراء الكتب التي أدخلوها إلى الأندلس؛ إضافة إلى من كان يحمل العلم رواية في الصدور[٦].

---

(١) بروفنسال، حضارة ٤٩، السامرائي، تاريخ ٣١٥.
(٢) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٦، ٣٢/٥.
(٣) السامرائي، خليل إبراهيم صالح، تاريخ المغرب العربي، الموصل، ١٩٨٨، ٣١٦.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣١٦.
(٥) الحميدي، جذوة ١١٧.
(٦) السامرائي، تاريخ، ٣٢٠.

الحياة العلمية والأدبية في الأندلس والمغرب الإسلامي:

اعتمد الأندلس والمغرب أولا على التراث الإسلامي بالمشرق، وكان هذا الاعتماد إما عن طريق الداخلين إلى الأندلس في عصر الولاة الذين يمثلون نوعاً من الثقافة؛ حيث كانت اللبنة الأولى لبناء صرح الحضارة العربية المغربية، فقد دخل الأندلس مجموعات من الصحابة والتابعين رافقوا عمليات الفتح أو بعدها[1]، وكان واجبهم الأول بعد الجهاد تفقيه الناس بأمور الدين وتخطيط المساجد في أمهات المدن الأندلسية والمغربية، والتركيز على علوم القرآن واللغة [2]، وإما عن طريق استقدام العلماء المشارقة إلى المغرب والأندلس، وإما عن طريق رحلات طلبة العلم إلى المشرق للتزويد بالعلم والتحصيل في مختلف أنواع العلوم والآداب.

وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التزويد بالعلم، ويذكر المقري في كتابه (نفح الطيب) أن الجاهل الذي يوفقه الله للعلم في الأندلس كان يجهد نفسه ليتميز بصفة ويربأ بنفسه أن يُرى عالة على الناس؛ إذ أنهم كانوا يعدون ذلك في غاية القبح، والعلم عندهم مُعظَّم من الخاصة والعامة على السواء؛ يشار عليه ويحال عليه وينبه قدره وذكره عند الناس[3].

أما أماكن التعليم في عصر الولاة فلم تكن في الأندلس والمغرب مدارس كما هو الحال في المشرق؛ بل كان الطلبة يقرأون ويدرسون في حلقات المساجد أولاً، والكتاتيب التي ورد ذكرها في أواخر عصر الولاة ثانياً[4].

وقد اهتم أمراء بني أمية باقتناء المصنفات النادرة وأرسلوا للبحث عنها والتماسها وشرائها، فالأمير عبد الرحمن الأوسط بعث عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق ليبحث له عن الكتب القديمة النادرة، فأتى له بالسند هند وغيره، ويعتبر عبد الرحمن الأوسط أول من أدخل هذا الكتاب إلى

---

(١) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، ١٩٤٩، ١٩-٢٠.

(٢) صاعد، صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، القاهرة، لا، ت٦٢.

(٣) المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، ٢١٥/١.

(٤) السامرائي، تاريخ ٣١١.

الأندلس، وهو يداخل كل ذي علم في فنه، كما كان مكرماً للعلماء محسناً لهم، وكان يخلو بكبير الفقهاء عيسي بن يحي الليثي ويشاوره، فقد كان شاعراً وأديباً ذا همة عالية عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة [١].

غير أن الحركة العلمية في الأندلس لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخلافة (٣٠٠- ٣٦٦)، فقد شجع الناصر وابنه الحكم العلماء المشارقة القادمين إلى الأندلس وأغدقوا عليهم العطاء، وقد جلبوا الكتب القيمة وترجموا الكتب الأجنبية، وحثوا على التأليف والبحث في مختلف المجالات، فاذا كان الناصر قد أحسن استقبال الوافد أبي على القالي وجعله مؤدباً لابنه الحكم؛ فإن الخليفة الحكم اشتهر بحبه للكتب، وقيل أنه جمع مالاً يوصف كثرة ونفاسة حتى إن مكتبته بلغت٤٠٠ ألف مجلد حيث كان يجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكن بذله من الأموال، حتى ضاقت عنها خزائنه، ويذكر إبن بشكوال أنه قلما وجد كتاباً في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن [٢].

وذكر أبو محمد بن حزم عن تليد الخصي المتولي لخزانة الكتب بدار بني أمية أن عدد فهارس مكتبة الحكم المستنصر ٤٤ فهرسة لكل فهرسة عشرون ورقة.

ولكن هذه المكتبة العظمي التي جهد الحكم في تكوينها لم تلبث أن بددت عند حصار قرطبة سنة ٤٠٠ هـ. فبيع أكثرها على يد الحاجب واضح العامري ونهب ما بقي منها [٣].

سارت الثقافة الأندلسية في فترة الحجابة بقوة الدفع التي كانت سائدة في عصر الخلافة، ولم تر أي تقدم ملحوظ في ميادين المعرفة باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة[٤]، ووفود الأديب اللغوي أبي العلاء صاعد بن الحسن البغدادي من المشرق، الذي أراد له المنصور أن يعفي آثار أبي علي

(١) سالم، السيد عبد العزيز، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت، ١٩٧١م، ١٦١/٢.
(٢) ابن بشكول، خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة، بلا، ١٩٥٥، ٤٣٩/٢، سالم، السيد عبد العزيز، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، الأسكندرية، ١٩٨٥م، ص٢٨٣.
(٣) سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت، ١٩٧١، ١٦١/٢.
(٤) السامرائي، تاريخ ،٣٢٠.

القالي؛ فتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق كتاب الأمالي فأذن له المنصور في ذلك، فجلس صاعد بجامع الزهراء يملئ كتابه المترجم بالفصوص فلما أكمله ناقشه أدباء العصر فلم يتركوا خبراً أو كلمة دون أن ينتقدوها فأمر المنصور بأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر [١].

وربما كان من عوامل استمرار الدفع للثقافة الأندلسية أن الحاجب المنصور كان على صلة قديمة بالثقافة، وأنه كان مصاحباً للعلماء ويُروى عنه بأنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية بحضرة المنصور طيلة إقامته بقرطبة [٢].

أما فترة الفتنة ٣٩٩- ٤٢٢ فهي فترة التفكك والانحلال التي ادت إلى سقوط الخلافة الأموية وقيام دول الطوائف، وكان من نتاج الفتنة تعطيل النشاط الثقافي، فأغلقت حلقات الدرس وقتل بعض العلماء وخاصة ابن الفرضي صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس، وهاجر البعض الآخر من قرطبة إلى شرق الأندلس كابن حزم حيث يلتمس شئ من الأمان[٣].

ولكن ما لبث أن ازدهرت الحركة الفكرية في الأندلس في عصر الطوائف (٤٣٣- ٤٨٤)، وذيوع المكتبات العامة الخاصة التي شملت أجود وأنفس الكتب، فقد رعت مملكة أشبيلية هذه الظاهرة وكذلك مملكة المرية وبطليموس وطليطلة، فاشتهرت مكتبة الوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامري[٤]، كما اشتهرت مكتبة أبي محمد عبد اللّه بن حيان بن قرصوف الأورشي في مدينة بلنسية؛ الذي كان له همة عالية في اقتناء الكتب [٥]. فقد ذكر ابن علقمة في تاريخه أن ابن ذي النون صاحب بلنسية عّد كتب الأورشي فكانت مائة وثلاثة وأربعين عدلاً من أعدل الحمالين[٦].

واشتهرت الدراسة التاريخية والجغرافية في الأندلس خلال هذه الفترة، وكان من رواد هذه الحركة التاريخية ابن حيان المعروف بكتابه المقتبس،

---

(١) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢.
(٢) ابن الابار، محمد بن عبد الله، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣م، ٢٦٨/١.
(٣) السامرائي، تاريخ، ٣٣٣.
(٤) عنان، محمد عبد الله، دولة الطوائف، ط٣، القاهرة، ١٩٨٨، ١٣٦-١٣٧.
(٥) ابن بشكول، الصلة، ٤٣٩/٢-٤٤٠.
(٦) الضبي، أحمد بن يحي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ومجريط، ١٨٨٤، ٤٤٥.

والعالم ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب وكتاب نقط العروس، والعالم ابو عمر يوسف بن عبد البر الذي ألف كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وكتاب الدرر في اختصار المغازي والسير[1].

وكان رائد الدراسات الجغرافية في عصر الطوائف أبا عبيد البكري ت ٤٨٧، وهو صاحب كتاب المسالك والممالك وكتاب معجم ما استعجم وهو مؤلف انتفع به الفونسو العالم في تاريخه العام[2].

العلوم الدينية واللغوية والأدبية:

تفضيل الاشتغال بهذه العلوم على الاشتغال بالعلوم الفلسفية والطبيعية حتى في عصور قوة الدولة العربية الإسلامية؛ لأن العلوم الدينية واللغوية والأدبية كانت عميقة الجذور في وعى الأمة العربية الإسلامية، وفي عقليتها وموروثها الثقافي والديني، وكانت تلقي التأييد من الرأي العام العربي الإسلامي الذي ظل متشبعاً على الدوام بالروح الدينية .

١.العلوم الدينية:

اعتنق الأندلسيون في عصر الولاة مذهب الإمام عبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٥٧)، الذي كان مجاهداً من الذين رابطوا في مدينة بيروت لصد غارات العدو البيزنطي البحرية، ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الجهاد، وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلس في هذه الفترة في حياتهم القائمة على الجهاد، ولهذا اعتنقوا هذا المذهب.

وتختلف الروايات حول العالم الأول الذي نقل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس، فترجح بين القاضي الغرناطي أسد بن عبد الرحمن (ت ١٥٠) وصعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢) [3].

وفي عصر الإمارة أقبل الأندلسيون على اعتناق مذهب الإمام مالك بن أنس في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن، وشاع في أواخر القرن الثالث الهجري هذا المذهب بالأندلس، كما دخل الأندلس المذهب الشافعي، ويرجع دخوله إلى الفقيه قاسم بن محمد بن سيار القرطبي؛ الذي رحل إلى

---

(١) الحميدي جذوة، ٢٦٨، السامرائي، تاريخ ٣٣٦.

(٢) عنان، دولة الطوائف، ٤٣٤، السامرائي، تاريخ، ٣٣٦.

(٣) ابن الفرضي، عبد الله بن محمد، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، القاهرة، ١٩٥٤، ٧٤/١، بروفنسال، حضارة، ٦١.

المشرق ودرس على علماء الشافعية أمثال إبراهيم بن محمد والحارث بن مسكين وغيرهما، وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد وتوفي عام ٢٧٧[١]

وشاع المذهب الشافعي في فترة الخلافة وأصبح من أقطابه أسلم بن عبد الرحمن العزيز بن هاشم؛ الذي ولى قضاء الجماعة للخليفة عبد الرحمن الناصر، فكان جليل القدر ثقة في الرواة، وأحمد بن عبد الوهاب الذي عاصر الحكم المستنصر[٢]، كذلك انتشر المذهب الظاهري وكان من أقطابه المنذر بن سعيد البلوطي خطيب جامع الزهراء وابن حزم الأندلسي ت٤٥٦.

كذلك عني أهل الأندلس بالعلوم الدينية كعلوم القرآن والتفسير والحديث والقراءات وصنفوا فيها الكتب، وأول من ظهر منهم محمد بن وضاح ت ٢٨٧ مولى عبد الرحمن بن معاوية، الذي رحل إلى المشرق رحلتين في طلب الحديث، وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه متكلماً على علله[٣].

ويعد نهج تفسير القرآن بالمأثور من أبرز المناهج التي اشتهرت بالأندلس، فتزعم هذه المنهج العالم الفقيه بقي بن مخلد ت ٢٦٧؛ الذي ألف كتاباً في تفسير القرآن بلغ فيه درجة من الجودة والاتقان[٤].

وأصبحت الأندلس دار حديث بفضل جهود بقي بن مخلد في زمن الإمارة؛ الذي رحل إلى المشرق ولقى جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين، وهو الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية وصنف عدداً من الكتب التي جمع فيها من العلوم الواسعة والروايات العالية والاختلافات الفقهية ما أغاظ فقهاء قرطبة أصحاب الرأي والتقليد، ولم ينقذه من هذا الموقف الحرج إلا المناظرة المشهورة لأعدائه الفقهاء وظهر على خصومه فارتفعت منزلته فاعتلى في العصور التالية[٥].

---

(١) ابن الفرضي، تاريخ ٥٩٧/٢-٥٩٩ السامرائي، تاريخ ٣١٥.
(٢) ابن الفرضي، تاريخ ٧٤/١، الحميدي، جذوة، ٢٦٨.
(٣) المقري، نفخ الطيب، ١٧٣/١، سالم، قرطبة، ١٩٧/٢.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣٢٣.
(٥) ابن الفرضي، تاريخ، ٥٩٧/٢- ٥٩٩، سالم، قرطبة، ١٩٧/٢.

وأنجبت الأندلس في علم أصول الفقه علماء مشهورين بالفضل؛ فظهر طائفة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة، فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحي بن يحي الليث (٢٣٤) وأستاذة زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكي للأندلس، وتولى يحي الليثي فتيا الأندلس برأي مالك بعد عيسي بن دينار، وذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيي الليثي[١].

ومن دعائم الفقه على المالكية بقرطبة في عصر الإمارة يحيي بن ابراهيم بن مزين القرطبي ت ٢٥٩؛ الذي صنف كتاباً في تفسير الموطأ وكتاب تسمية الرجال المذكورين فيه وكتاب في فضائل العلم[٢].

وفي عصر الخلافة ازدهرت العلوم الدينية؛ ففي مجال تفسير القرآن اشتهر العالم عثمان بن محمد بن محاسن (ت ٣٦٥) وكان له باع في علم التفسير، واشتهر ابن الحجام يعيش بن سعيد الذي ألف مسند حديث بأمر الخليفة الحكم المستنصر، وألف العالم يحيي بن شراحيل (ت ٣٧٢) كتاباً في توجيه الموطأ للإمام مالك[٣]. ومن دعائم الفقه المالكي محمد بن يحيي المعروف باليوجون (ت٣٣٠)، ومحمد بن يبقي (ت ٣٨١) الذي كان أحفظ أهل عصره للمسائل على مذهب مالك وأصحابه[٤].

في علم القراءات ظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات، ويحي بن مجاهد بن عوانة الفزاري (ت ٣٨٨) الذي كان مهتماً بالقراءات[٥].

لم تخمد أنفاس الحركة العلمية خلال فترة الحجابة والفتنة، فقد كان هناك بقية من العلماء الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة وانتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة فحفظوا للأندلس الكثير من عملها وتراثها، ومن

---

(١) سالم ، قرطبة، ١٩٩/٢.
(٢) سالم، قرطبة، ٢٠٠/٢
(٣) ابن القرطبي، تاريخ ٥٩٧/٢، الحميدي، جذوة، ١٢٨.
(٤) سالم، قرطبة، ٢٠٠/٢.
(٥) سالم، قرطبة، ١٩٨/٢

أشهر هؤلاء العلماء أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور وكان أحد شيوخ الحديث[١].

وأبو محمد أبو عبد الله بن يوسف الرهوني، وكان مؤدباً ومحدثاً مجوداً للقرآن[٢]، كما كان هناك بعض العلماء ممن وفدوا إلى الأندلس من المشرق وكان لهم دور علمي كبير، ومن أشهر الوافدين أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المصري الذي قدم من مصر (٣٩٤)، وكان رجلاً حافظاً للحديث عالماً بالأخبار[٣].

وبرز في الأندلس خلال فترة الفتنة عالمان جليلان لهما دور بارز في الثقافة الأندلسية هما أبو محمد بن حزم (ت ٤٥٦) وأبو مروان بن حيان (٤٦٩)، فابن حزم انصرف إلى العلم بعد سقوط الخلافة الأندلسية وتجول في الأندلس، وخاصة في شرقيها ناشراً مذهبه الظاهري، ولقي الأمرين من علماء المالكية وبالذات من أبي الوليد الباجي داعياً للوحدة في الأندلس، أما ابن حيان فانصرف إلى كتابة الأدب[٤].

وازدهرت العلوم الدينية في فترة الطوائف وخاصة في بلاط المعتصم بن صمادح وغيره، حيث كانوا يعقدون مجالس الفقهاء في كل جمعة يتدارسون كتب التفسير والحديث ورعت مملكة دانية العلوم القرانية، وكان رائدها شيخ القراء أبو عمر الداني، وظهر أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧) وكان متبحراً في علوم القرآن مجوِّداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها. وتزعم الدراسات الفقهية العالمان أبو محمد علي بن حزم وأبو الوليد سليمان بن خلف الباجي داعياً إلى توحيد الأندلس[٥].

٢.الدراسات اللغوية :

اقتصرت الدراسات النحوية واللغوية في الأندلس في عهد الإمارة بادئ بدء علي قراءة النصوص الأدبية شعراً ونثراً، فكانت الدراسات النحوية علي هذا

---

(١) السامرائي، تاريخ، ٣٣٣.
(٢) ابن بشكوال، الصلة، ٤١٤/٢.
(٣) ابن بشكوال، الصلة، ٢٣٧/٢.
(٤) السامرائي، تاريخ ٣٣٣.
(٥) سالم، قرطبة، ١٩٩/٢، السامرائي، تاريخ ٣٣٦.

النحو ضنينة، إلى أن دخلت الأندلس كتب الكسائي، عند ذلك الحين أخذت تظهر بعض التواليف في النحو فكتب جردي بن عثمان النحوي (ت ١٩٨هـ) كتاباً في النحو بعنوان "مدينة الحجارة"، وبرز من علماء اللغة أيضاً أبو عبد الملك عثمان بن المثني القرطبي (ت ٢٧٣هـ)[١] الذي عاصر أربعة من الأمراء .

وكذلك فإن فقة اللغة العربية ازدهر بفضل علماء أنفقوا حياتهم كلها في بلادهم، أو بفضل آخرين عزموا علي السفر للنهل من منابع المعرفة نفسها في المشرق كالأندلسي ابن مالك صاحب الألفية الشعرية من الشعر تعالج موضوع الصرف والنحو، وكأبي حيان اللغوي الشهير الذي خلف نتاجاً هائلاً.

وفي فقة اللغة العربية يمثل وجه آخر أندلسي هو ابن سيده، وعن قاموسه الضخم في الجناس والمخصص أي يقع في سبعة عشر جزءاً، يتفق مع قواعد كبار فقهاء اللغة المشارقة[٢].

وقد تأسست في فترة الخلافة مدرسة الدراسات اللغوية في الأندلس وذلك بعد قدوم أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب كتاب الأمالي، الذي وفد إلى الأندلس عام ٩٤١/٣٣٠ حاملاً كثيراً من علوم المشرق وأدبه وبالذات دواوين إمرئ القيس وزهير والنابغة الذبياني والخنساء والأخطل وجرير والفرزدق وغيرهم[٣]، هذا بالإضافة إلى كتب الأخبار واللغة، كما ألف كثيراً من الدراسات اللغوية وأملى على طلبته الأندلسيين كتاب الأمالي[٤].

وبالعكس رحل أندلسيون في اللغة إلى بلاد المشرق أمثال محمد بن يحيي بن عبدالسلام (ت ٣٢٨هـ)، رحل إلى مصر ولقى فيها النحاس وأخذ عنه كتاب سيبيويه وعاد إلى الأندلس، ويعني هذا تطور الدراسات اللغوية في الأندلس في هذه الفترة .

---

(١) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢.
(٢) بروفنسال، حضارة، ٦٢.
(٣) سالم، قرطبة، ١٦٤/٢، السامرائي، تاريخ، ٣٢٦.
(٤) ابن الفرضي، تاريخ، ٦٩/١.

وبرز علماء في هذا المجال أمثال العاصمي وابن العريف وأبي بكر الزبيدي الذي كان مؤدباً لهشام بن الحكم المستنصر[١]، وأبي بكر بن القوطبة المشهور بعلم التاريخ، وكان إماماً في العربية وله كتاب في الأفعال لم يؤلف مثله[٢].

وقد ازدهرت الدراسات اللغوية في فترة الحجابة التي دفعت بعلماء من المشرق الإسلامي، حيث وصل في هذه الفتره اللغوية المشرقي الأديب صاعد البغدادي إلى الأندلس عام٣٨٠هـ على أيام الحاجب المنصور فاستقبله المنصور أحسن استقبال[٣].

ولقي صاعد البغدادي الأمرين في الأندلس، تصدي له بعض علمائها ودخلوا معه في محاورات علمية، إلا أن هذه المحاورات أدت إلى تنشيط الحركة اللغوية، وكان لكتابه الفصوص أثر كبير في تغذية الدراسات اللغوية .

وفي فترة الطوائف، كان من رواد الدراسات النحوية العلامة اللغوي أبو الحسن علي بن سيده (ت ٤٥٨هـ) صاحب كتاب المحكم[٤]، كما قدم الأندلس عام ٤٠٦هـ ثابت بن محمد الجرجاني، الذي كان مع الموفق أبي الجيش في غزوة سردينية وكان إماماً في العربية متمكناً في علم الأداب[٥].

٣. العلوم الأدبية :

أ- **النثر:** منذ عصر الفتح ظهرت البوادر الأولى للأدب العربي المتمثل في الشعر والنثر والخطابة، فهنالك أبيات من الشعر وخطبة نسبت إلى طارق بن زياد، فلو صحت هذه الرويات لقررنا أن أول أدب عربي ظهر في الأندلس خلال فترة الولاة إلى أن الشك يدور حول نسبتها إلى طارق بن زياد، وقد قدم بعض الباحثين دراساتهم في هذا المجال[٦]. واستمر النثر يسير على الأسلوب

(١) ابن الفرضي، تاريخ، ٧٦٨/٢.
(٢) الحميدي، جذورة، ١٢٨/١، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ٥١٢/١.
(٣) المراكشي، المعجب، ١٩، السامرائي، تاريخ ٣٣١.
(٤) عنان، دول الطوائف، ٤٣٤.
(٥) الحميدي، جذوة، ٢٨٤.
(٦) السامرائي، تاريخ، ٣١١

التقليدي المشرقي في فترة الولاة، فمن نماذج النثر خطب الأمراء ووصاياهم لأبنائهم[١].

أما الخصائص الفنية لهذا النثر فهي خصائص النثر المشرقي نفسه، فهو يميل إلى الإيجاز، ويعني بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ثم خلوه من المقدمات الطويلة[٢]. إلا أنه ظهرت بوادر الأدب الأندلسي، فهنالك التجديد الموضوعي الذي تزعمه أبو المخشي عاصم بن زيد العبادي الذي يتحدث عن محنته حين فقد بصره، وهذا ما يسمي بالتجديد الفني[٣].

لم تبدأ الحركة الأدبية نشاطها في الأندلس إلا منذ دخول الأمير الشاعر عبدالرحمن ابن معاوية قرطبة متخذاً منها مقراً لدولة بني أمية، وذلك لاشتغال المسليمن في فترة الولاة بالفتوحات تارة، وبالفتن االداخلية تارة أخرى[٤].

اشتهرت في الأندلس أسماء ما زالت أسماع المشارقة تألفها حتي الأن منها ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب العقد الفريد وهو عبارة عن منتخبات تأثر في اختبارها إلى حد بعيد بعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، ومنها كذلك أبو علي القالي العراقي الأصل، أقام في الأندلس وأصبح مربياً للحكم الثاني، ومنها أيضا أبو بكر الطرطوشي الذي وضع بحثاً في الأخلاق والسياسه أسماه سراج الملوك[٥].

اشتهر الكاتبان فطيس بن عيسي وخطاب بن زيد اللذان كان كاتبين للأمير هشام ثم لابنه الأمير الحكم وكذلك حجاج العقيلي كاتب الحكم[٦].

وقد كان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ذا شهرة لدى الأندلسيين، وقد وصلت بعض كتبه إليهم مثل كتاب البيان والتبين، كما كان يقصده بعض

---

(١) ابن عذارى، أحمد بن محمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧، ٦٨/٢.
(٢) السامرائي، تاريخ، ٣١٣.
(٣) السامرائي، تاريخ، ٣١٧.
(٤) سالم، قرطبة، ١٦٧/٢.
(٥) بروفنسال، حضارة، ٦٣، سالم، قرطبة، ١٦٩/٢.
(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٦٨/٢.

علماء الأندلس للتلمذة على يديه، وقد وجدت نماذج لبعض الرسائل والمحاورات والتوقيعات في هذا العصر تدل على تقدم النثر الأندلسي[1].

نهض الأدب الأندلسي في فترة الخلافة نهضة كبيرة ساعد عليها ما كان من رقي سياسي ونهوض ثقافي وتفوق اجتماعي، وأخذت هذه النهضة الأدبية عدة مظاهر منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر، وقد مثله ابن عبد ربه أحسن تمثيل، وكذلك أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبيدة[2].

وكذلك ظهور الأنواع الجديدة في النثر؛ فبجانب الأسلوب القديم الذي كان يسمي النثر الخالص ظهر نوع جديد من النثر يسمي بالنثر التأليفي، ويتألف من فرعين الأول يسمي التاريخ الأدبي ويحتله كتاب أخبار الشعراء بالأندلس لمؤلفه محمد بن هشام المرواني، وكتاب شعر الخلفاء من بني أمية لمؤلفه عبد الله بن محمد بن مغيث المعروف بابن الصفار وهو مشهور بالعلم والأدب، جمع من أشعار الخلفاء من بني أمية كتاباً، كان أثيراً عند الحكم المستنصر[3]، ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات فقدت. والثاني هو التاليف الأدبي، ويعني ظهور كتب أدبية بمفهوم القرن الثالث والرابع الهجري لكلمة أدب، وأحسن نوع يمثله هو كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي.

ومن مظاهر النهضة الأدبية الأخرى تطور الاتجاهات الأدبية القديمة المعروفة، كذلك وفرة النتاج الأدبي وتنوعه إضافة إلى شيوع الأدب شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية في هذه الفترة[4]. توقف هذا النوع التأليفي في فترة الحجابة واستمر النثر الخالص، ولكن أهم ما يلاحظ على هذا الأسلوب ظهور طريقة ابن العميد وزير عضد الدولة البويهي (ت٣٦٠هـ)[5].

---

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٥٤/٢

(٢) ابن الابار، الحلة السيراء، ٢٤٧/١، المقري، نفح الطيب، ٣٠٤/١

(٣) ابن بشكول، الصلة، ٢٣٧/١، الحميدي، جذوة، ٣٩٣/١.

(٤) السامرائي، تاريخ ٣٢٩.

(٥) العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، ١٩٧٢، ١٧١-١٧٢. السامرائي، تاريخ /٣٣٢.

تلك الطريقة التي تميل إلى الإطناب وتعتمد على السجع والجناس مع ذكر بعض الأمثال والاشارات التاريخية مع تدعيم النشر بالشعر ولا شك أن حياة الترف كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة[١].

وبرز العالم أبو مروان بن حيان في فترة الفتنة الذي انصرف إلى كتابة الأدب والتاريخ، واشتهر بكتابه المقتبس وتأثر الأدب بأحداث الفتنة أولاً انتشار أدب التلهي والنفاق أو ما يسمي بأدب الهروب، وثانياً ظهر أدب التأمل والنقد أو ما يسمي بأدب المراجعة، وكان الشعر مجال النوع الأول (أدب الهروب)، وكان النثر مجال النوع الثاني (أدب المراجعة)، ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر؛ فظهرت أنواع نثرية جديدة وجادة أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل ومراجعة مما ساعد على التخيل والتأمل[٢].

وقد أشتهر أحمد بن عبد الملك بن شهيد بالأدب ومعاني الشعر، وله كتاب (حانوت عطار)[٣] كما له رسالة التوابع والزوابع وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلة في عالم الجن[٤]، وتوفي في قرطبة عام (٤٢٦هـ)، وكان لحين وفاته حاملاً لواء الشعر والبلاغة[٥]، أما أبو محمد بن حزم الذي عاصر دولة الطوائف فاشتهر كتاب له في هذا المجال (طوق الحمامة في الألفة والألاف)، وتناول فيه دراسة عاطفة الحب بشكل مفصل، واعتمد أسس التجربة والتحليل النفسي في منهجه[٦].

نشطت الحركة الأدبية في فترة الطوائف على الرغم من الفرقة السياسية التي ضربت بلاد الأندلس، وذلك لرعاية ملوك الطوائف الأدباء والعلماء ولأن معظمهم كان من رجال الأدب، فبذلك غدت قصورهم منتديات أدبية[٧].

---

(١) العيادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي، ١٧٢.
(٢) السمارائي، تاريخ ٣٣٤.
(٣) الحميدي، جذوة، ٢٠٩.
(٤) الحميدي جذوة، ٢١٢، السامرائي، تاريخ ٣٣٤ .
(٥) الحميدي، جذوة، ٢١٢ .
(٦) السامرائي، تاريخ ٣٣٤.
(٧) عنان، دولة الطوائف، ٤٢٣.

واشتهرت الدراسات التاريخية والجغرافية في الأندلس خلال هذه الفترة، وكان من رواد هذه الحركة التاريخية ابن حيان المعروف بكتابه المقتبس والعالم ابن حزم صاحب كتاب جمهرة أنساب العرب، وكتاب نقط العروس والعالم أبو عمر يوسف بن عبد البر الذي ألف كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) وكتاب (الدرر في اختصار المغازي والسير)[١].

وكان رائد الدراسات الجغرافية في عصر الطوائف أبا عبيد البكري (ت٤٨٧هـ) صاحب كتاب المسالك والممالك وكتاب معجم ما استعجم وهو مؤلف انتفع به الفونسو العالم في تاريخه العام[٢].

ب. **الشعر:** إن بعض المصادر حفظت لنا بعض الشعراء في عصر الولاة ونماذج من أشعارهم، ويأتي في طليعتهم أبو الأجدب جعونة بن الصمة الكلابي الذي يعد من قدماء شعراء الأندلس[٣]، والوالي الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار الكلابي الذي كان يلقب بعنترة الأندلس[٤].

هؤلاء الشعراء وفدوا من المشرق إلى الأندلس فتناول شعرهم المدح أولاً في مجال الحروب الجهادية أو في مجال الحروب القبلية[٥].

أما الشاعرة حسانة بنت أبي الحسين التميمية فهي أولى الشاعرات الأندلسيات وشعرها مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون فهو شعر يتسم بالتجديد الفني والتركيز العاطفي[٦].

وفي عهد الإمارة الأموية بالأندلس كان الشعر متأثراً بالتقاليد المشرقية، وقد ساعد ذلك وفود عدد من المغنين والمغنيات والجواري المشرقيات إلى الأندلس أمثال قمر والعجفاء وزرياب.

إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة من مياه جارية وجبال خضراء وبساتين يانعة رفعت من مشاعر أهل الأندلس وهذبت من جفوتهم فاستخدموا ملكات الحس والخيال في وصف الطبيعة وفي إجادة تصويرها[٧].

---

(١) الحميدي، جذوة، ٨٧٤.
(٢) عنان، دولةالطوائف، ٤٣٤.
(٣) الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٤) عنان، دولة الطوائف، ٤٣٤.
(٥) الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٦) الضبي، بغية، ٢٤٤/١، الحميدي، جذوة، ٢٩٣.
(٧) سالم، قرطبة، ١٦٨/٢.

وكان لجمال الطبيعة أثره في إسراف شعراء الأندلس في تعلقهم بها، ففي عهد الأمير عبد الرحمن الداخل الأوسط برز عدد من كبار الشعراء ومنهم عباس بن ناصح الجزيري وعبدالله بن شمر ويحيي الغزال والشاعرة القرطبية المشهورة حسانة التميمية.

ولكن هذه النهضة الأدبية التي اتسم بها هذا العصر استقلت أصولها من المشرق ثم طرأ عليها تطور تدريجي بحكم البيئة الأندلسية[1].

وفي عهد الأمير عبد الله ظهر من الشعراء الفارس العربي سعيد بن جودي الذي كان يتزعم ثوار العرب في غرناطة، وكان يمثل العصبية في صراعها ضد العصبية الإسبانية [2].

ج. **الموشحات والأزجال الأندلسية:** يجمع مؤرخو العرب الأدب الأندلسي على أن فن الموشحات نشأ في الأندلس على يد مقدم بن معافي القبري؛ أحد شعراء الأمير عبد الله بن محمد، وأخذ عنه بعد ذلك أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد[3]، وكان هذا الأمر استجابة إلى ازدهار الغناء في الأندلس منذ دخول زرياب ونتيجة لامتزاج العرب بالإسبان، وبذلك يقول ابن خلدون (فلما كثر الشعر في الأندلس وتهذبت مناحيه وفنونه بلغ التنمق فيه الغاية واستحدث المتأخرون منهم فناً فيه سموه بالموشح واستظرفه الناس جملة والخاص لسهولة تناولها وسلاستها وتنميق كلماتها وترصين أجزائها وقرب طريقتها[4].

إلا أن فن التواشيح لم يبلغ ما بلغه من عظمة وشهرة إلا في عصر ملوك الطوائف الذي ازدهرت فيه الآداب والفنون نتيجة طبيعية لتعداد المراكز الثقافية، وأول من برز في صياغة الموشحة الموسيقية عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ملك المرية[1]، وقد بلغت ذروة ازدهارها في دولتي المرابطين والموحدين.

---

(١) سالم، قرطبة، ١٧٠/٢.
(٢) ابن عذري، البيان، المغرب، ١١١/٢.
(٣) ابن خلدون، العبر، ٥٨٤/١، سالم، قرطبة، ٩٩/٢
(٤) ابن خلدون، العبر، ٥٨٤/١، سالم، قرطبة، ١٨٤/٢.
(١) سالم، قرطبة، ٩٩/٢-١٠٠.

أما الزجل فشعر غنائي يصاغ من مفردات تسمي أبياتاً كالموشحات، ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على نغمات العود والمزمار، وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبي (ت: ٥٥٥هـ) الذي يعد إمام الزجالين التي اشتهرت أزجاله في الآفاق[٢].

(٢) سالم، قرطبة، ١٠٩/٢.